شؤون فلسطينية

مركز الأبحاث صيف، 2020 العدد، 280

في مواجهة "الضَّم" ومعركة الرواية

شؤون فلسطينية
العدد 280 صيف 2020

ISSN 0258-4026
SHU'UN FILASTINIYAH

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الأبحاث
research center

www.prc.ps +970-2-2966228 info@prc.ps

الثمن 10 دولار أو ما يعادلها للمؤسسات، 5 دولار للأفراد
الاشتراك السنوي، 40 دولاراً للمؤسسات، 20 دولاراً للأفراد
الاشتراك السنوي خارج فلسطين: مائة دولار بما فيها أجور البريد.

شؤون فلسطينية

فَصليّة فِكريّة لمعَالجة أحدَاث القضيّة الفِلسطينية وشؤونها المُختَلفة
تّصدُر عن مَركز الأبحاث في منظمة التحُرير الفلسطينيَّة

العدد 280-صيف 2020

رئيس مجلس الإدارة
د. محمد اشتية

المدير العام
د. منتصر جرار

أعضاء مجلس الإدارة
د. إبراهيم أبراش
د. أحمد عزم
د. أيمن يوسف
د. حسام زملط
د. سامي مسلّم
أ. صقر أبو فخر
د. عدنان ملحم

رئيس التحرير
د. أحمد عز م

مدير التحرير
د. إبراهيم ربايعة

هيئة التحرير
د. أيمن يوسف
د. سامي مسلّم
د. عدنان ملحم

مركز الأبحاث: مؤسسة من مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، تأسس عام 1965 في لبنان. يهدف المركز منذ تأسيسه التركيز على تغطية الصراع العربي- الإسرائيلي من خلال إصدار الكتب وعقد الندوات والمؤتمرات وأرشفة الوثائق والمخطوطات التي تهدف إلى تحقيق هذا الغرض.
يعتمد المركز في بحوثه ونشاطه الفكري أسلوب العرض الموضوعي الموثّق للقضايا التي تتناولها دراساته وكتبه ونشراته الدورية، ويعتمد مناهج البحث العلمي المتبعة في العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

مركز الأبحاث- منظمة التحرير الفلسطينية
القدس- فلسطين
تلفاكس : 9722966228 +
Email : info@prc.ps
http://www.prc.ps

Research Center P.L.O
Al Quds - Palestine
Telfax: +9722966228
Email : info@prc.ps
http://www.prc.ps

مجلة شؤون فلسطينية
E-mail:Shuun@prc.ps

© حقوق الطباعة والنشر محفوظة

المحتويات

الصفحة

الافتتاحية 5

ملف العدد

فلسفة وآليات «الضم» الإسرائيلية وخطط التصدي الفلسطينية ..... وليد سالم 9

إسرائيل ومخططات الضم، التفاصيل والأهداف ..... فادي النحاس 27

قرى القدس: التنمية الرمادية وخطط الضم ..... أحمد حنيطي 43

منظمات وحملات صهيونية لتقويض الرواية السياسية الفلسطينية ..... اسلام عطا الله 57

الدبلوماسية الرقمية الإسرائيلية واستثمار الحدث: قراءة في نموذج مقتل جورج فلويد ..... تينا الجلاد 72

أنثولوجيا

أنثولوجيا ثوابت المشروع الصهيوني في فلسطين، قراءة وتحليل في تفاصيل التاريخ والجغرافيا ..... عدنان ملحم 92

متابعات

«الاتفاق» الإماراتي الإسرائيلي شرق أوسط جديد ..... وحدة تقدير الموقف «مركز الأبحاث» 105

إسرائيل: لا انقسام حول «الضم» والمعركة حول نظام الحكم ..... برهوم جرايسي 113

العمال وكورونا .. مختبراً للاستعمار الاستيطاني الاستغلالي الإسرائيلي ..... أحمد عز الدين أسعد 122

دراسات تاريخية

الأوبئة في لواء عكا في القرن التاسع عشر .....زهير غنايم 144

ندوة العدد

فلسطين والقانون الدولي بعد خطة الضم والتحلل من الإتفاقيات 154

صورة قلمية

حسين أبو النمل 164

مراجعات

..... 178

وثائق

بيان مشترك للولايات المتحدة وإسرائيل ودولة الإمارات العربية المتحدة..... 225

نص بيان القيادة الفلسطينية بشأن الإتفاق الثلاثي الإماراتي الإسرائيلي الأمريكي.... 227

تصميم وغلاف
أمير الطويل

الآراء الواردة تعبّر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء المركز

الافتتاحية

افتتاحية

في مواجهة «الضم» ومعركة الرواية

تزامن مع ظهور أزمة كورونا (كوفيد- 19)، فصل جديد في المشروع الاحتلالي الاستيطاني الصهيوني. حدثت ثلاثة تطورات أساسية تستهدف تقويض المشروع الوطني الفلسطيني، تم الرد عليها بتحرك فلسطيني على ثلاثة مستويات. إلا أنّ هذه التطورات أو الأحداث، أحيطت جميعها بمخطط يستهدف نزع شرعية النضال الفلسطيني، والتشكيك بحق المقاومة، وتدفيع الفلسطينيين ثمن صمودهم.

كان التطور الأول الذي يستهدف الحقوق الوطنية الفلسطينية، الخطة الأميركية للسلام، المسماة «السلام من أجل الازدهار» التي أعلنها البيت الأبيض منفرداً، يوم 28 كانون الثاني (يناير) 2020، وتعطي للإسرائيليين حق ضم مساحات من الضفة الغربية، وتلغي أي معنى أو فرصة لتشكيل دولة فلسطينية.

ثم جاء التطور الثاني، وهو تشكيل حكومة إسرائيلية جديدة، حصلت على الثقة في الكنيست يوم 17 أيار (مايو)، يقوم برنامجها الأساسي على ضم الأرض الفلسطينية رسميّاً «للسيادة» الإسرائيلية. أمّا التطور الثالث، فحدث يوم 13 آب (أغسطس)، بإعلان مفاجئ من قبل الرئيس الأميركي دونالد ترمب، عن بيان ثلاثي إماراتي، إسرائيلي، أميركي، (يعلن التوصل لاتفاق لبدء تطبيع العلاقات والاعتراف المتبادل بين إسرائيل ودولة الإمارات العربية المتحدة).

هذه الأحداث الثلاثة جاءت بينما يستمر الهجوم على شرعية النضال الفلسطيني، ووسمه بالإرهاب، ووسم الأسرى والشهداء بالإرهابيين، وفرض عقوبات مالية على الفلسطينيين بسبب الرعاية المقدمة للأسرى وأسر الشهداء، والهجوم على مناهج التعليم الفلسطينية، واعتبار الحديث عن فلسطين التاريخية وعن المقاومة، تحريضاً. فضلاً عن ملاحقة الإعلام الفلسطيني، وأي تعبير عن الصمود في الفضاء الرقمي أو المجتمع الفلسطيني.

تحركت القيادة الفلسطينية في ثلاثة اتجاهات، رفضت أولاً أي اتصال مع هذه الإدارة الأميركية، التي تقوم بسياسات أحادية الجانب دون تفاوض أو

مشاورات، وتم رفض الوساطة الأميركية المنفردة في عملية السلام، ودعت إلى آلية دولية تعددية جديدة للعملية السياسية.

ثانياً، مع اتضاح معالم البرنامج الحكومي الإسرائيلي، في نيسان (أبريل)، وتبنيه الضم الرسمي للأرض الفلسطينية المحتلة، قررت القيادة الفلسطينية وقف كل الاتفاقيات، وقد أعلنت ذلك يوم 19 أيار (مايو)، ثالثاً، شن حملة دبلوماسية دولية لحشد رأي عام رافض لكل من الخطة الأميركية ومضادة للضم، جنباً إلى جنب مع الاحتجاج الشعبي.

أدى وقف التنسيق الأمني، والتحلل من الاتفاقيات، لأزمة اقتصادية خانقة، فمن جهة، تكاد تنعدم المساعدات الاقتصادية العربية، وتوقف استلام أموال الضرائب التي تجبيها السلطات الإسرائيلية بحكم سيطرتها على الحدود (المقاصة)، وتراجع الدخل من الإيرادات المحلية، بسبب أزمة كورونا، وهذا أدى إلى أن حجم الإيراد للخزينة لا يزيد على نحو عشرة بالمئة من الفاتورة الشهرية للرواتب والمصروفات، البالغة نحو 380 مليون دولار أميركي شهرياً، إلا أن الخطوة الفلسطينية بوقف الاتفاقيات، أطلقت بشهادة الدبلوماسيين العالميين، والمراقبين، إنذاراً سمع بوضوح في العواصم العالمية، وكانت له نتائجه على الأرض.

لقد كانت السياسة الفلسطينية هي الانفكاك عن الاحتلال (انظر العدد السابق من مجلة شؤون فلسطينية)، ولكن التطورات الراهنة جعلت تعجيل الانفكاك العاجل مُلحّاً.

رغم أن أزمة كورونا أضعفت خيارات وقدرات التحرك والاتصال الدبلوماسيين، نسبيّاً، ومن القدرة على الحشد الشعبي، إلا أنّه تم النجاح في بناء زخم كبير رافض للضم، أدى فعلاً لأن يمضي شهر تموز (يوليو) دون حدث ضم رسمي، لتأتي بعد ذلك الخطوة الإماراتية الإسرائيلية.

بُني هذا العدد من مجلة شؤون فلسطينية على أساس هذه القراءة السابقة للأحداث. فتضمن ملف العدد خمسة مقالات، ثلاثة منها تعالج موضوع الضم، واثنان يعالجان الهجمة الصهيونية على شرعية النضال الفلسطيني، وعلى حق المقاومة، وعلى الرواية الوطنية الفلسطينية، خصوصاً في الفضاء الرقمي.

تضمنت مقالات وليد سالم، وفادي نحاس، وأحمد الحنيطي، قراءة في فلسفات وخطاب وذرائع الضم، بدءاً من طبيعة الاستعمار الاستيطاني، والتجارب العالمية للضم، لخطاب الأمننة، والتذرع بالأمن لتبرير الاستعمار،

وصولاً لخطط التنمية وكيف تخدم الاستعمار. كما درست المقالات الخرائط المتوقعة للضم، ليتضح أن ما سيبقى من أرض خارج السيادة الإسرائيلية، المزعومة، لن يزيد على 10 بالمئة من أراضي فلسطين التاريخية. تضمنت هذه المقالات رصداً وتصورات للرفض والسياسة الفلسطينية المضادة.

فضلاً عن هذه المقالات الثلاثة، تضمنت ندوة العدد التي شارك بها ثلاثة من خبراء القانون الدولي الفلسطينيين: أنيس القاسم، وشعوان جبارين، وياسر العموري، وبثت على منصة زووم الرقمية، تحليلاً لمعنى الضم الإسرائيلي، قانونيّاً، والخطط المقترحة فلسطينيّاً للتصدي القانوني للمخططات الإسرائيلية.

في موضوع شرعية النضال الفلسطيني، والهجوم على هذه الشرعية، تضمن ملف العدد مقالين، الأول لإسلام عطا الله، والثاني لتينا الجلاد، يتحدثان عن المنظمات الصهيونية التي تراقب الفلسطينيين، وإعلامهم، ونشاطاتهم، على شبكة الإنترنت، وتقوم بشن حملات سياسية وقانونية لتجريم الخطاب الفلسطيني، وعقاب الفلسطينيين على تمسكهم بخطاب تحرري.

مجمل هذه المواجهة من ضم زاحف وتبعية اقتصادية مفروضة وضرب لشرعية المطالب الوطنية الفلسطينية ليست أمراً مستجدّاً، مثلما أن المقاومة الفلسطينية لكل ذلك مستمرة، وهذا ما يوضحه باب أنثولوجيا، الذي يعده عدنان ملحم، ويتضمن مراجعات لما ورد في أعداد شؤون فلسطينية حول موضوع ملف هذا العدد.

وفي باب متابعات، يقدم أحمد أسعد تحليلاً أنثروبولوجيّاً لمستجدات التعامل الإسرائيلي مع العُمّال الفلسطينيين، في ظل جائحة كورونا، إذ تم إلغاء الكثير من قيود الحركة على العمال بهدف تأمين حاجة سوق العمل الإسرائيلية، وضرب الخطط الفلسطينية في ضبط حركة المواطنين في مواجهة الجائحة، ولتعميق علاقة مباشرة بين السوق الإسرائيلية والفلسطينيين دون دور للسلطة الفلسطينية الرسمية. فيما تقدم وحدة تقدير الموقف في المركز قراءة في الإعلان الثلاثي عن تطبيع العلاقات الإماراتية الإسرائيلية، كما يضعنا برهوم جرايسي في آخر مستجدات الساحة السياسية الإسرائيلية وتفاعلاتها.

تضمن باب «صورة قلمية» لهذه العدد قراءة في سيرة الكاتب والمناضل الفلسطيني الراحل حسين أبو النمل، أعدها مروان عبد العال، إضافة

لمراجعة في كتابين هامين كان الراحل قد أصدرهما في مركز الأبحاث، وأعدت المراجعة فيروز سلامة.

في باب دراسات تاريخية، يقدم زهير غنايم دراسته عن «الأوبئة في لواء عكا في القرن التاسع عشر الميلادي»، مقدماً فرصة للمقارنة بين وقائع تاريخية لجوائح مرضية وواقعنا الراهن.

وأخيراً، ما زال باب مراجعات الكتب والدراسات يتسع في المجلة، ليأخذ شكل مسح للجديد حول فلسطين، في الإصدارات بالعربية والإنجليزية.

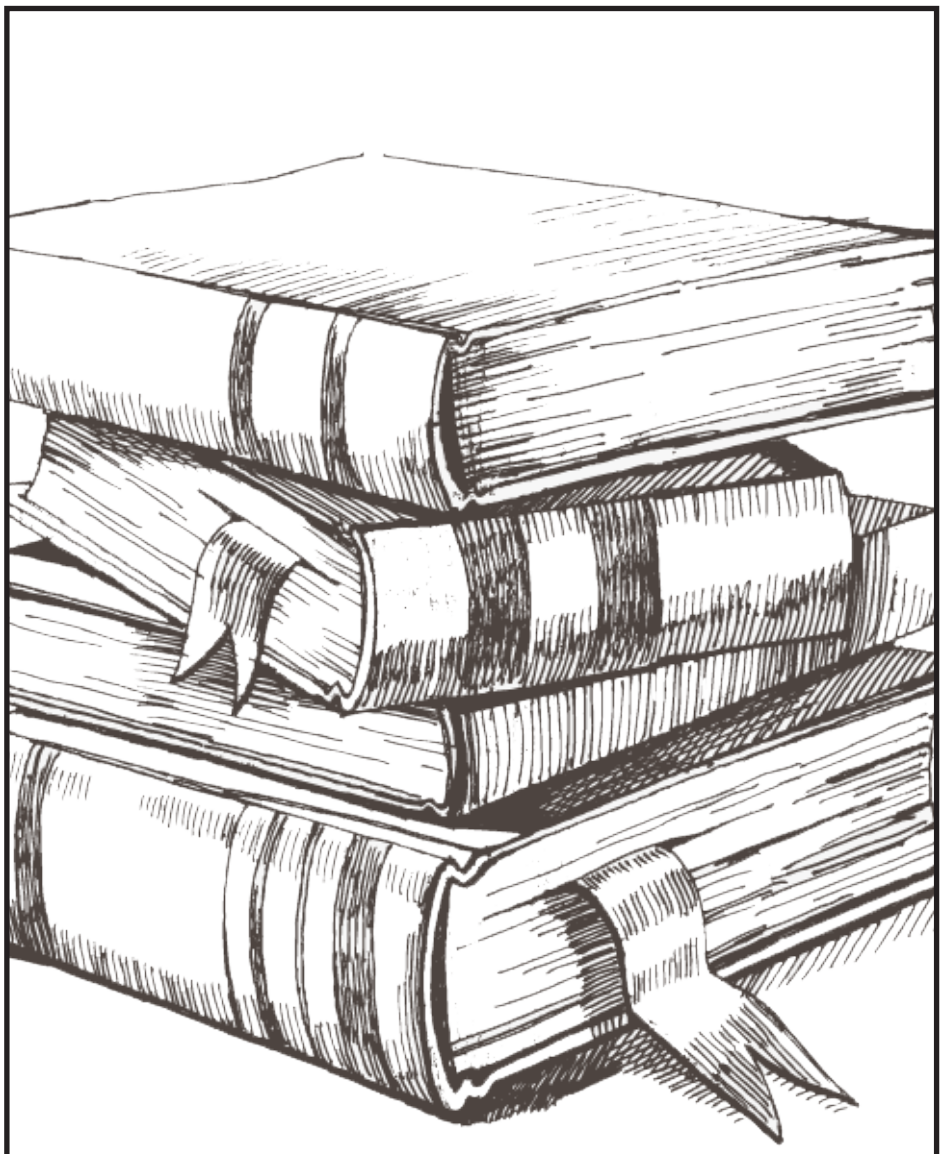

دراسات تاريخية

الأوبئة في لواء عكا في القرن التاسع عشر

زهير غنايم عبد اللطيف غنايم*

تتناول هذه الدراسة «الطاعون» وغيره من الأوبئة في لواء عكا في القرن التاسع عشر الميلادي، الذي كان يشمل أقضية صفد والناصرة وطبريا وعكا، اعتماداً على عدد من المصادر التاريخية، أهمها: كتاب «سليمان باشا العادل» لمؤلفه إبراهيم العورة، إضافة إلى بعض الصحف التي صدرت في بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ومنها: صحيفة «البشير» التي كانت تصدر في بيروت، و«الاتحاد العثماني» التي كانت تصدر في بيروت أيضاً.

المقدمة:

عانت فلسطين في العصر العثماني من انتشار العديد من الأوبئة والأمراض، وبشكل خاص الطاعون، الذي أدى إلى وفاة الآلاف من السكان في المدن والقرى في مختلف أنحاء البلاد. وقد دَوّنَ المُؤرّخون الذين عاصروا الوباء السنوات التي انتشر فيها ومدى تأثيره على السكان وطرق مقاومته والحد من انتشاره.

يتميز الطاعون بأنه مرض سريع الانتشار سريع الوفاة، وينتقل بين الناس بسرعة كبيرة، ويؤدي إلى وفاة أعداد كبيرة من السكان في المناطق التي ينتشر فيها في فترة قصيرة، ما دفع المؤرخين إلى وصفه بالفناء، لما يسببه من وفاة المئات من السكان.

ففي عام 1760، انتشر الطاعون في بلاد الشام وعم جميع المناطق فيها. يذكر ميخائيل بريك: «وفي هذه السنة (1760م)، دخل الفناء (الطاعون) للشام، وكان قدومه من ناحية عكا، واستقام في الشام وديرتها نحو ستة أشهر إلى آخر الصيف، وكان فناء عظيماً كبيراً، وكان حدوده من أراضي غزة والرملة والقدس وبلاد حوران ودايرة الشام وساحل عكا وصيدا وبيروت وطرابلس إلى حدود أنطاكيا وكل من تخبأ وانحجب (أي ألزم نفسه بالحجر) بضبط سَلِم»[1].

* عضو هيئة التدريس في دائرة التاريخ بجامعة القدس.

كما انتشر الطاعون في عكا سنة 1799م، وبشكل خاص بين الجنود الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون عكا، وكان ذلك سبباً من الأسباب التي دفعت نابليون لوقف الهجوم على المدينة والانسحاب عائداً إلى مصر[2+3]. يذكر نقولا الترك: «وفي شهر شوال الموافق آذار (1799م)، تباين الطاعون في العساكر الفرنساوية، وكان عليهم أعظم بلية، ومات منهم خلق وافر»[4].

ويذكر خالد صافي نقلاً عن هيرولد[5] أن تفشي الطاعون بدأ بين الجنود الفرنسيين في 8 آذار (مارس) 1799م، وفي اليوم التالي، أدخلت إحدى وثلاثون حالة إلى المستشفى الذي أقيم في دير الروم الكاثوليك في المدينة، وعلى الرغم من وفاة أربعة عشر مصاباً منهم، فإن نابليون حاول في البداية إخفاء ذلك خوفاً من إحباط معنويات جنوده، ولكن بعد انتشار المرض بشكل كبير بين جنوده، اضطر إلى زيارة المصابين في المستشفى في 11 آذار (مارس)[6].

وفي عام 1811م، انتشر الطاعون في عكا، حيث انتقل إليها من القسطنطينية العاصمة العثمانية، وقد ترك إبراهيم العورة وصفاً لسبب انتشار الطاعون في عكا، فذكر: «سنة 1226هـ/ 1811م، في هذه السنة، عند أواخرها، حدث الطاعون المريع الكبير في عكا، وذلك أنه في أوائل شهر كانون الأول (يناير)، تسامع خبر وجود الطاعون في الأستانة العلية.. لأن مرض الطاعون دايم لا ينقطع من تلك البلاد نظراً لكبرها، ففي تلك الأثناء، حضر تاتار[7] في تاتارية باب سليمان باشا[8] على عكا، وأحضر إلى رجل يهودي اسمه إسحاق سعدي جبة جوخ، فإذا لبسها ابنه، أحس بمرض الطاعون حالاً. وخرجت له طاعونة تحت إبطه والأخرى في فخذه، فمن رداوة أهله، كتموا الأمر، إلى أن فتحت الطاعونتان وهو داير بين اليهود وهم يترددون عليه، فانعدى منهم واحد ثم واحد آخر، وهكذا لحد ثمانية أنفار، حينئذٍ، شاع الخبر في أول يوم من كانون الثاني سنة 1227هـ، وكانت الإشاعة من البعض أولاً أنها عروس باط، وبقي الفحص عنها إلى نهار سابع كانون الأول، إذ مات اثنان من اليهود، وخاف النصارى في عكا وصاروا يختبئون في الكورنتينات، ثم امتد بين اليهود، ومنهم امتد للإسلام بكل سرعة، وبأقرب وقت، امتد وسرى في كل عكا...»[9].

كان الانعزال في البيوت وعدم الاختلاط بين الناس (الحجر الصحي) هو إحدى الطرق التي يستخدمها السكان في تجنب الإصابة بالطاعون، وقد يكون الحجر داخل البيوت أو الانتقال إلى القرى والأماكن البعيدة

عن السكان والبقاء فيها حتى ينتهي الطاعون. وقد أوضح العورة ذلك فذكر: «في خامس عشر كانون الثاني 1811م، تم تسكير بيوت كل النصارى المقتدرين على الخباء، والجميع انحجبوا وعملوا كورنتينات على بيوتهم، والغالب حضروا لعند بعضهم البعض لأجل خدمة نفوسهم.. وبيت أندريا سابا وعائلتين معهما قفلوا في دار واحدة مع أربع عائلات كانوا ساكنين في تلك الدار.. والخوري أنطونيوس الفاخوري وعائلته وأولاده وعياله ورجال أقاربه وذويه قفلوا سوية.. وجرجس منسي وميخائيل ملك وجرجس مسدية وبيت كرامة وبيت يوسف حكيمة وبيت النجار وجيرتهم وبيت فضول والطوق الصابونجي وبيت طنوس القنواتي، بما أنهم كانوا مجاورين الكنيسة، فكانوا يجتمعون على سكايل خشب وضعوها على أسطحة بيوتهم إلى حد دار الكنيسة، ويقفون بعيداً ليسمعوا القداس، وكذلك أهالي حارة الشخوص القافلون، كانوا يعملون سكايل ويطلعون لنواحي الكنيسة من محل إلى محل ويصغون من بعيد»[10].

ويذكر العورة مثلًا آخر على الحجر أو ما يسميه الاختباء، هو أن علي باشا كتخدا (نائب) سليمان باشا والي صيدا (عكا)، عندما بدأ الطاعون في عكا، خرج منها سريعاً، وأخذ معه نساءه وأولاده وخدامه، وانتقل إلى مزرعة له خارج عكا، ووضع فيها حريمه وأولاده بالخباء (الحجر)، وفرض عليهم كورنتينا بغاية الضبط، ووضع فيها اثنين من سكان عكا لحراستها وعدم السماح بالخروج منها أو الدخول إليها إلا للضرورة القصوى، وعندما اشتد الطاعون في عكا، خاف وانتقل إلى وعرة شفا عمرو، وأقام في البرية، ورتب حراساً لعدم السماح لأحد بالدخول عليهم، أما حريمه وأولاده، فنقلهم من المزرعة إلى قصره في بستانه الخاص في القناطر، وشَدّدَ غاية التشديد بضبط الكورنتينا وعدم تمكين أحد من الخروج[11].

كذلك أوضح العورة طريقة أخرى لكيفية تجنب الإصابة بالطاعون عندما يتحدث عن الكتاب العاملين في ديوان الحكومية في عكا، فيذكر: «فأما الكتاب، لما تظاهر الطاعون، طلبوا الإذن بالاختباء (...) ودخل حينئذٍ البعض من الكتاب الشباب الخبا دون إذن، والبقية مثل المعلم حنا[12] عورة وابن عمه إبراهيم النحاس وأبناء الصابونجي وكيورك الفرا صاروا يطلعون للسراي إلى خدمتهم بحال الانحجاب (...)، وهكذا صار الترتيب أن تكون إقامتهم في أوضة، ونقلوا إليها كل الدفاتر والأوراق اللازمة والحبر والورق وما يلزم للكتابة، وانوضع على بابها ستة أنفار شوباصية[13] لأجل الخدمة والمحافظة، فالمعلم حييم[14،15] استعجل الإقامة في الأوضة ليلًا نهاراً

لحد عشية الجمعة، فكان ينزل ليلاً إلى بيته.. وعشية الأحد يرجع إلى السراي، أما البقية منهم، فصباح النهار مع شروق الفجر يتوجه إلى باب كل بيت اثنان شوباصية، وحين يمشي واحد أمامهم وآخر خلفهم، يحافظون عليهم من لمس إنسان أو دابة أو كلب أو بسين (قط) أو خرقة أو غيره، وفي السراي، جميع الأوراق يبلونها بالخل والبخور، ودايماً ريحة البخور لا تنقطع أبداً، فالمعلم حنا العورة كاتب العربي لما يتم تحرير المراسيم جميعها يأخذها ويطلع لعنده (لعند سليمان باشا) بالمحافظة، وإذ يدخل، يجلس على البلاط المنظف وبيده إسفنجة مبلولة بخلّ، فيضع الوزير خاتمه على الأرض فيتناوله المعلم حنا بالإسفنجة ويغسله بالخل ثم يمسحه ويمسكه بيده، وبعد أن يقرأ الأوامر، يختمها ويضع الخاتم على الأرض أمام الوزير فيتناوله وينهض..»[16].

ويُكمِل العَورة مُوضّحاً كيفية معيشة بعض السكان في بيوتهم خلال انتشار الطاعون، فيذكر: «وفي بيوتهم، انحجبوا من عيالهم وأولادهم، وأفرزوا لأنفسهم أوضة لإقامتهم ومنامهم، وفي وقت الأكل، يقدم لهم الأكل على سدر من خشب قدر كفايتهم، والذي يفيض عنهم يكبونه ويأخذون الصحون والملاعق الخشب ويغسلونها بالخل والماء ويغسلون أيديهم لأنفسهم ويفرشون فرشاتهم لحالهم ويحلقون لبعض، وهكذا ترتيبهم مدة الكورنتينا التي استقامت من عاشر شهر كانون الثاني لغاية تموز»[17].

وقد ذكر العورة الآثار التي ترتبت على الطاعون، فذكر أنه: «كان طاعوناً قاسياً رديّاً جدّاً ومخيفاً وامتد وتعاظم.. حتى أنه ما بقي بيت من بيوت عكا (التي ما دخلت الخبا) إلا ودخل عليها ومات فيها خلق، واتصلت يومية الأموات حسبما كانوا يخبرون إلى المايه والعشرين نفراً، وفيما بعد، تحقق أنه كان أكثر، وكان المخبرون يخبرون بالقليل قصداً، لغايات عدم الشماتة، كون المغسلين والمكفنين ما عادوا يلحقوا ولا عاد الحمالين يقدروا أن يحملوا، وكانوا يحملون الأموات ويخرجونهم من قبل شروق الشمس بساعة لحد الساعة الرابعة والخامسة على ضوء المشاعل، وكانت تسمع أصوات البكاء والولاول في سائر بيوت البلدة من الليل، الأمر الذي كان يجمد الدم في جسم الناس، وكان في تلك الأيام الحزن واللطم والبكا والنواح والخوف والفزع والرعدة شامل قلوب المخلوقات داخلاً وخارجاً»[18].

وكان تأثير الطاعون على المسلمين أشد منه على المسيحيين، لأن المسلمين كانوا يرفضون الانعزال في بيوتهم أو الخروج إلى المناطق خارج

المدينة تجنباً للإصابة بالمرض، فيذكر العورة: «والإسلام لا بيت ولا عيلة إلا ناقصة نصفها أو ثلاثة أرباعها بل زيادة، والنصارى تامين بل زايدين عما دخلوا، لأن غالب النساء التي كانت حبالى ولدن وخرجوا بأولادهم..»[19].

لم تقتصر الأمراض والأوبئة في لواء عكا على الطاعون فقط، فقد كان اللواء يعاني من انتشار أمراض أخرى بشكل شبه دائم، مثل الهواء الأصفر (الكوليرا) الذي تفشى في اللواء سنة 1832م بين أهالي عكا والجنود المصريين فيها، وهذا ما دفع إبراهيم باشا بن محمد علي إلى فرض الحجر الصحي على بلاد الشام، وبشكل خاص على القادمين إليها من خارجها. كما كان يتم عزل المناطق والقرى التي تنتشر فيها الأمراض والأوبئة[20+21]. واستمر انتشار الأمراض في اللواء بعد ذلك، فانتشرت الكوليرا بشكل كبير عام 1865م، وأدت إلى وفاة ما يقارب من 1963 شخصاً في جميع أنحائه، كما يظهر الجدول التالي الذي يبين عدد الوفيات مقارنة مع عدد السكان[22]:

القضاء	حيفا	عكا	طبريا	الناصرة	المجموع
عدد السكان	1465	36475	11675	13975	76776
عدد الوفيات	896	687	43	337	1963

كما استمر انتشار الكوليرا بعد ذلك في اللواء، فمثلاً، انتشر الوباء في طبريا سنة 1902م، وكان عدد الوفيات فيها خلال خمسة أيام ما بين 14-9 تشرين الأول قد بلغ 64 شخصاً[23]، وفي 29 تشرين الأول 1902م، توفي في طبريا أيضاً 35 شخصاً بعد إصابتهم بالكوليرا[24].

وانتشرت الكوليرا في حيفا عام 1912م، فكتب مراسل البشير فيها «أصاب مدينتنا في هذه السنة ما أصاب المدن السورية من حلول الكوليرا الضيف الثقيل. والسبب في انتشاره كثرة المواصلات بينها وبين دمشق والأقطار الحجازية، وقدوم بعض الركاب الملوثين بالوباء، وبيع أمتعة من مات منهم على الطريق؛ ما سهَّل بقاء مكروباته زمناً ليس بقصير، بالإضافة إلى وجود المستنقعات والأقذار في بعض الأنحاء وإهمال أمر التنظيفات؛ فكانت الإصابات تتراوح بين الخمس والست يوميّاً»[25].

كما كانت الحمى من الأمراض واسعة الانتشار، وقد أدّت إلى وفاة الكثير من السكان. ذكرت صحيفة البشير سنة 1895م: «أن الحمى انتشرت في صفد وهي شديدة الوطأة على الناس، ولا يحتمل المصاب

أكثر من 24 ساعة»[26]. وكتبت البشير في عدد آخر أن الحمى الصفراوية[27] انتشرت إلى درجة كبيرة في قرية البصة في ثلاثمئة بيت، ولا يخلو بيت من مصاب أو اثنين[28]. كما انتشرت الحمى الصفراوية بصورة واسعة في الناصرة وقضائها سنة 1891م[29].

كذلك انتشر الجدري بين الناس، وكان يؤدي إلى وفاة أعداد كبيرة منهم، فذكر مراسل البشير فيها سنة 1897م أن الجدري انتشر في عكا وحيفا بصورة أكثر من السنوات الماضية[30]. كما تفشى الطاعون في أنحاء مختلفة سنة 1332هـ/ 1913م وفتك فيها فتكاً ذريعاً[31].

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل انتشرت في اللواء أيضاً أمراض أخرى مثل الزهار (الدوسنطاريا) والحمى المتقطعة، اللذين أصابا عكا وقضاءها عام 1891م، حيث أصيب في عكا وحدها ألف شخص وثلاثة آلاف في قضائها[32].

وكانت المدينة أو القرية تتعرض لأكثر من مرض في وقت واحد، ففي سنة 1888م، انتشر داء الحصبة في عكا وأصاب الأطفال فيها، ومنها امتد إلى القرى المجاورة وإلى حيفا التي انتشر فيها داء الخانوق أيضاً[33].

كما أشارت صحيفة البشير إلى الوباء المعروف بـ(أبو الركب)، أو حمى الدنج[34]، فذكر مراسل الصحيفة في شفا عمرو أن داء أبو الركب برح المدينة غير مأسوف عليه بعد أن أنحل الأجسام وأضعفها[35].

ولمعالجة هذه الأمراض والأوبئة، أنشئت المشافي في لواء عكا. وكان أول هذه المشافي الذي أنشئ في المنطقة خلال الحكم المصري لبلاد الشام 1831-1840م؛ حيث أنشأ المصريون عدداً من المشافي العسكرية لمعالجة الجنود الجرحى والمرضى، فأشارت الوثائق التي تعود لفترة الحكم المصري إلى إنشاء مشفى في عكا، وعيَّن إسماعيل أفندي ناظراً له[36]، ومشفى آخر في شفا عمرو[37]، ومشفى ثالث في قرية ترشيحا[38]، ورابع في حيفا على جبل الكرمل[39]. ولكن العمل في هذه المشافي توقف مع انتهاء الحكم المصري لبلاد الشام؛ إذ أشارت المصادر إلى وجود مشفيين فقط هما المشفى العسكري في عكا[40] والمشفى العسكري في حيفا الخاص بالجنود العاملين في سكة حديد الحجاز[41].

كذلك اهتمت الإرساليات التبشيرية الغربية التي قدمت إلى المنطقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي بإنشاء المشافي في اللواء، فأنشأت البعثة الطبية الإسكتلندية (Scottish Medical Mission)،

مشفى في الناصرة[42]، وأنشأت البعثة الإسكتلندية Edinburgh Medical Mission))، المعروفة بجمعية أدنبرة الطبية المشفى الإنجليزي في طبريا[43]، بعد أن صدرت الموافقة الحكومية على إنشائه عام 1892م. وأقامت هذه البعثة المستشفى الإنجليزي في حيفا، وكان يعمل فيه ثلاثة من الأطباء الإنجليز[44].

وأنشأت الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية المشافي في لواء عكا، فأنشأ رهبان القديس الإلهي مشفى العائلة المقدسة في الناصرة؛ حيث عولج فيه عام 1897م حوالي 197 مريضاً، وفي العام التالي، عولج فيه 236 شخصاً[45،46].

كما اهتمت الجمعية الإمبراطورية الأرثوذوكسية الروسية بإنشاء المشافي، فأنشأت مشفى في حيفا[47] ومشفى ثانياً في الناصرة عام 1908م[48].

الخاتمة:

عانى لواء عكا في القرن التاسع عشر الميلادي من انتشار الأمراض والأوبئة بشكل شبه سنوي، وكانت هذه الأوبئة تؤدي إلى وفاة الآلاف من السكان، وقد ساعد على انتشارها ضعف الخدمات التي كانت تقدمها الدولة العثمانية للسكان، إضافة إلى ضعف الثقافة الصحية للسكان، وتمثل ذلك في رفض بعض السكان الالتزام بالحجر أثناء انتشار هذه الأوبئة، وكان ذلك سبباً هامّاً وأساسيّاً في انخفاض عدد السكان في اللواء، ما كان يؤثر بشكل واضح على الأنشطة الاقتصادية، وبشكل خاص على الزراعة، الحرفة الرئيسية للسكان في تلك الفترة.

ولكن، منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ولا سيما بعد إصدار الدولة العثمانية لما أصبحت تعرف بالتنظيمات العثمانية، عملت الدولة على تحديث أنظمتها المختلفة في مجالات التعليم والصحة والإدارة، حيث بدأت بالاهتمام بالرعاية الصحية من خلال إنشاء المشافي والمراكز الصحية، كما أنها فتحت المجال للمؤسسات والإرساليات التبشيرية لإنشاء المشافي التي استقدمت الأطباء من أوروبا والولايات المتحدة للعمل فيها، ما أدى إلى تحسن أوضاع السكان الصحية، وبالتالي انخفاض عدد الوفيات وازدياد عدد السكان، وقد ترافق ذلك مع اكتشاف الأمصال المقاومة للأوبئة، مثل الطاعون والجدري والحصبة منذ

أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلاديين، فأصبح بإمكان الإنسان مقاومة هذه الأوبئة عن طريق تناول هذه الأمصال.

الهوامش

1 ميخائيل بريك، تاريخ بلاد الشام 172 - 1782، (حرصيا: مطبعة القديس بولس، 1930)، ص 70

2 عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج2، (وندسور: مؤسسة هنداوي، رقم الطبعة، 2012)، ص 115/116.

3 حيدر أحمد الشهابي، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين «الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان»، (بيروت: الجامعة اللبنانية، 1389 هـ/1969م).

4 نقولا الترك، ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية وبلاد الشام، (بيروت: دار الفارابي، 1990م)، ص 76/84

5 هو كريستوفر هيرولد، بونابرت في مصر، (القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1962)، ص 318/322.

6 خالد صافي، الحملة الفرنسية على سورية (بلاد الشام) 1799م، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، رام الله، العدد 8، (تشرين الأول/ أكتوبر 2016)، ص 395

7 «مصطلح أطلق على ساعي البريد في العصر العثماني»، انظر حسان حلاق وعباس صباغ، المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والتركية والفارسية، (بيروت: دار العلم للملايين، 1999م)، ص 50.

8 إبراهيم العورة، سليمان باشا العادل، (صيدا: مطبعة دير المخلص، 1936) ص 186/187.

9 المصدر نفسه، ص 186/188.

10 المصدر نفسه، ص 187/188.

11 المصدر نفسه، ص 190/191.

12 «العلم حنا العورة: رئيس الكتاب عند سليمان باشا العادل»، المصدر نفسه، ص 108/114.

13«الشوباصية: مصطلح يطلق على المسؤولين عن الأمن والنظام في المدن والقرى»، انظر: حلاق وصباغ، المعجم الجامع، ص 138.

14 «المعلم حييم: حايم فارحي، المسؤول عن الأمور المالية في ولاية صيدا (عكا) خلال حكم كل من أحمد باشا الجزار وسليمان باشا العاد»، انظر: إلياس صالح اللاذقي، آثار

الحقب في لاذقية العرب، (بيروت: دار الفارابي، 2013) ص 11.

15 العورة، سيلمان باشا، 24، 90.

16 المصدر نفسه، ص 188/189.

17 المصدر نفسه، ص 189.

18 المصدر نفسه، ص 196.

19 المصدر نفسه، ص 198.

20 أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا 1930-1934م، (بيروت: الجامعة الأمريكية، 1934)، ص 77/ 78/83.

21 صافي، الحملة الفرنسية على سوريا، ص216/220.

22 شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب 1800-1914، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1910)، ص 107.

23 صحيفة البشير، العدد 1568، (17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1902)، ص 2.

24 زهير غنايم، لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية 1864-1918م، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1999م)، ص 132.

25 جريدة البشير، العدد 2087، (14 تشرين الثاني/ نوفمبر 1912)، ص 3.

26 البشير، العدد 1290، (12 تموز/ يوليو1897م)، ص 2.

27 الحمى الصفراوية Yallow fever، «مرض يسببه فيروس يصيب الكبد فلا يعمل بصورة طبيعية وتنتشر مادة على الجلد تجعله أصفر، وترافق ذلك إصابة المريض بالصداع والحمى والدوار، الأمر الذي يؤدي إلى وفاته»، انظر: الموسوعة الطبية، ج 6، ص800/802.

28 جريدة البشير، العدد 1079، (30 أيلول/ سبتمبر 1891)، ص 1.

29 البشير، العدد 1082، (22 أيلول/ سبتمبر 1891)، ص 2.

30 البشير، العدد 378، (7 كانون الأول/ ديسمبر 1877)، ص 2.

31 صحيفة القبس، العدد 65، (23 كانون الثاني/ يناير 1913)، ص 2.

32 البشير، العدد 1078، (25 آب/ أغسطس 1891)، ص 2.

33 «الخانوق: مرض يصيب الإنسان، وأعراضه الإصابة بالحمى والصداع والغثيان. وفي عام 1916، اكتشف الطبيب الأميركي شيك Schik، المصل المضاد للمرض»، انظر: الموسوعة الطبية، ج3، ص 596.

34 «أبو الركب (حمى الدنج): مرض من أعراضه حمى تستمر ثلاثة أيام، حيث تظهر حبوب على الجسم، كما ينتقل المرض بالعدوى إلى الآخرين»، انظر: الموسوعة الطبية، ج 1، ص 788/810

35 البشير العدد 1693، (20 آذار/ مارس 1905)، ص 4.

36 أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، ج2 (بيروت: المطبعة الأميركية، 1943-1940م)، ص 30/240/241.

37 المصدر نفسه، ص 243.

38 المصدر نفسه، ص 155.

39 المصدر نفسه، ص 355.

40 Laurence Oliphant, Haifa or life in modern Palestine. Edinburgh and London : William Black, wood and sons, 1887, P. 123/124.

41 محمد رفيق التميمي ومحمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، بيروت: مطبعة الإقبال، 1914) ، ص 276.

42 أسعد منصور، تاريخ الناصرة، (القاهرة: دار الهلال، 1923)، ص 33/34.

43 البشير، العدد 1018، (آذار/ مارس 1892)، ص 2.

44 Baedeker, karal palestne and Syria Travellers, Leipzig, Karal Baedeker publisher 1912 ,p247.

45 البشير، العدد 1296، (25 تشرين الثاني/ نوفمبر 1897)، ص 3.

46 العدد 1396م (15 كانون الثاني/ يناير 1900)، ص 3.

47- Baedeker, op.cit,249 .

48 البشير، العدد 1611، (تموز/ يوليو 1908)، ص 3.